الخَصائصُ الْفَنِّيَةُ للرَّسائِلِ الدِّيوانِيةِ الْمُوحِّدِيَّةِ

د. جواد المليلي
المغرب

تقديم:

تفردت الرسائل الديوانية الموحدية بسمات خاصة سواء من حيث اللغة أو الشكل، وقد جاء ذلك كنتيجة لنهج الإصلاح والتغيير الذي أحدثه الموحدون في نظم كتابة الرسائل الديوانية، "فأصبحت الكتابة الديوانية على عهدهم ذات رسوم وتقاليد خاصة وطريقة متميزة عن غيرها"[1]، فالمتلمس للرسائل الديوانية على الخصوص في بداية قيام الدولة الموحدية يجد أنها كتبت بطرق مختلفة، تتحدد حسب تَوَجُّهَات الكاتب، وهي بذلك في طريقها تبحث عن الشكل الأكمل لها، والذي سيتحدد في أواخر حكم عبد المؤمن وفترة حكمه ابنه أبي يعقوب يوسف؛ على يد كاتبهما أبي عبد الله بن عياش، والذي قال فيه المراكشي: "ولم يكتب لهم منذ أن قام أمرهم (...) من كتبة الإنشاء من عرف طريقتهم، وصب في قالبهم، وجرى على مهيعهم، وأصاب ما في أنفسهم، كأبي عبد الله بن عياش هذا، فإن القوم لهم طريقة تخالف طريقة الكُتَّاب، ثم جرى الكُتَّاب من بعده على أسلوبه وسلكوا مسلكه، لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة"[2].

ونروم في هذا المقال أن نعرف بأهم الخصائص الفنية التي ميزت الرسائل الديوانية الموحدية والتي ميزتها عن الرسائل الديوانية التي كتبت في العصور التي سبقتها أو التي جاءت بعدها، فما هي الخصائص الفنية للرسائل السياسية الموحدية؟ وما الذي ميزها عن غيرها من الرسائل؟ وكيف ساهمت هذه السمات الفنية في تشكيل وترسيخ مضامين الرسالة لدى المتلقي؟

1- أسلوب الكتابة الديوانية عند الموحدين:

اتخذ أسلوب الكتابة الديوانية عند الموحدين أشكالا متعددة ومتفردة، لفتت أنظار الدارسين إليها، فقد لاحظ القلقشندي أن كتاب الديوان الموحديين قد تميزوا "عن كتاب المشرق وكتاب الديار المصرية بأمور: منها أن المخاطبة تقع للمكتوب إليه بميم الجمع مع الانفراد، كما تقع الكتابة عنه بميم الجمع مع الانفراد، ومنها أنهم يلتزمون الدعاء بمعنى الكتابة، عند قولهم –كتبنا– بأن يقال: (كتبنا إليكم كتب الله لكم كذا)، ومنها أنهم يترضون عن الخليفة القائمين بدعوته في كتبهم، ومنها أنهم يذكرون اسم المكتوب إليه في أثناء الكتاب (...) وتختم بالسلام غالبا، وربما ختمت بالدعاء ونحوه"[3].

ففي قول القلقشندي أن (المخاطبة تقع للمكتوب إليه بميم الجمع مع الانفراد)، نجد العديد من الرسائل التي ينطبق عليها هذا القول؛ كرسالة عبد المؤمن بن علي إلى ابن غانية، والتي جاء فيها: "وَكتابُنا إلَيْكُم- كَتبَ اللهُ لَكُم أسْعدَ العمارِ عاقِبةً وتَماماً، وَأَقْربَ الْأقْدارِ اتّصالًا بِمنازِلِ الأَبْرارِ وإلْماماً"[4]، ورسالة الحسن بن عياش التي كتبها عن الأمير يوسف بن عبد المؤمن إلى أمير شرق الأندلس، التي يقول فيها: "وإنا كَتَبْناهُ إلَيْكُم – أَمَدَّكُم اللهُ بِتَوفيقِهِ- منْ حَضْرةِ مُراكُشَ – حَرسَها اللهُ – (...) وإنا- وَصلَ اللهُ تَوْفيقَكُم بما لَهُ عَلَيْنا منْ هَذهِ الْعُهْدةِ اللّازمَةِ والأَمانةِ الْمُتقَلّدةِ والحِياطَةِ التي حمّلْناها"[5].

غير أن هذا النمط في مخاطبة المكتوب إليه ليس عاما، لأننا نجد في المقابل الكثير من النماذج الصادرة عن الديوان الخليفي ولا ينطبق عليها هذا الحكم، حيث تخاطب المكتوب إليه بصيغة المفرد، كرسالة ابن عبد الحميد إلى ابن تودوت التي يقول فيها: "إلى أبي بَكْرٍ، أيْقظَ اللهُ بَصيرتَهُ منْ نَوْمَةِ ضلالَة، وفاءَ بِهِ إلى كَنَفِ التوحيدِ وضلالِه (...) أما بَعد، فيالَيْتَكَ لَمْ تُخْلَقْ بَشرا سَوِيا، فَقَدْ

صرْتَ للشّيْطان وَليا..."[6]. ورسالة السيد عبد الرحمن والي مرسية إلى ألفونسو ملك قشتالة؛ حيث يخاطبه بصيغة المفرد فيقول: "منْ عَبْدِ الرّحمنِ بنِ أميرِ المؤْمنينَ بنِ أميرِ المؤمنينَ –أيَّدَ اللهُ أَمْرَهُمْ– إلى أَذفونْش بنِ شَنْجة ملكِ قَشْتالَة وَطُلَيْطِلة وَفَّقَهُ اللهُ وهَداهُ وأَراهُ وجْهَ رُشْدِهِ (...) إنّما روَّيْت أنْ تُذكي بنا على الْمُسلِمينَ حَرّ الجلاد، فامْتَنَنْتَ كما ظَنَنْتَ، وأَنْعَمْت فيما زَعَمْت..."[7]. ونجد أيضا رسالة السيد أبي موسى إلى المرتضى بشأن المدخرات المفقودة: "ولمْ تَزَل أَبدا تَنْتمي إلى الزّهادةِ وتَتَّصف بالْوَرَعِ (...) فإن كانَ ما بيَدِكَ مَدفونا فَعَرِّفْ حَيْثُ هو (...) وإذا أَقْرَرْتَ بأَحَدِ هذيْن الْوَجْهَيْن يُرجى لَكَ عَفْوُ سيّدنا وَمولانا الْخَليفة أَمير المؤمنين"[8]، والواضح من الأمثلة أن صيغة مخاطبة المكتوب إليه بصيغة المفرد تطغى في رسائل التقريع والتوبيخ، أو رسائل التهديد والوعيد، وذلك بهدف تحسيس متلقي الرسالة بضآلة مكانته.

أما قول القلقشندي: (كما تقع الكتابة عنه بميم الجمع مع الانفراد) فإننا نجد رسائل كثيرة ينطبق عليها هذا الحكم، كرسالة الشيخ أبي حفص الهنتاتي إلى الخليفة عبد المؤمن التي يقول فيها: "كِتابُنا هذا منْ وادي ماسة، بَعدما تَجَدَّد منْ أمرِ اللهِ الكريمِ، ونَصرِهِ المعهودِ المعلومِ، وما النّصرُ إلّا منْ عندِ اللهِ العزيزِ الحكيمِ، فَتحٌ بهرَ الأنوارَ إشراقاً"[9]، وفي رسالة السيدان أبي حفص؛ وأبي سعيد؛ التي جاء فيها: "فكتبناهُ أكْرمكُم اللهُ بتقْواهُ، وأَوزعْنا وإيّاكمْ شكر نعماه"[10]. وهناك أمثلة كثيرة تسير على ذات النهج. لكن في المقابل نجد رسائل أخرى لا تسير على نفس الصيغة، ومن ذلك جواب المرتضى على اتهامه بإخفاء المدخرات: "فلا أعرفُ ما وُجد وما لم يوجد، وما تحتَ الأرضِ اللهُ يعلمُ أني ما دَفَنْتهُ ولا أودَعتهُ"[11]، وفي رسالة السيد أبي زيد والي بلنسية إلى الخليفة المأمون حول ظروف شرق الأندلس، "فكتبَ العبدُ –كتبَ اللهُ تعالى للْمقام الامامي الْمأموني مُضاء الحدّ، وسعادة الجدّ منْ بلِنسية، والاسلام بِيُمن نقيبته محْبور"[12].

نجد أن القلقشندي قد عمم الكثير من الخصائص على كافة الرسائل الموحدية، مع العلم أن لكل رسالة خصائصها سواء على مستوى الكتابة أو الشكل؛ تفرضه طبيعة الموضوع المطروح في الرسالة، وكذلك طبيعة المتلقي وما يريد المرسل أن يوحي إليه من خلال صيغة المخاطبة، فإن هو خاطبه بصيغة الجمع؛ دل ذلك على الاحترام والتقدير، وإن خاطبه بصيغة المفرد؛ كان ذلك دلالة على التحقير والتصغير.

2– البدء والعرض والختام:

أ – على مستوى الاستهلال:

يواجه الباحث في بنية الرسائل الديوانية الموحدية صعوبة تحديد شكل عام تفتتح به هذه الرسائل؛ نظرا لأن أغلبها مبتور البداية، لكن سنحاول دراسة الرسائل الغير مبتورة، ومحاولة إعطاء صورة عامة لطريقة افتتاح الكتاب الديوانيين الموحدين لرسائلهم، وكان القلقشندي قد حدد صيغتين تفتتح بهما الرسائل الموحدية، تتمثل الصيغة الأولى في "أن تفتتح المكاتبة بلفظ (من فلان إلى فلان)، وكان الرسم فيها أن يقال: (من أمير المؤمنين فلان) ويدعى له بما يناسبه (إلى فلان) ويدعى له بما يليق به، ثم يؤتى بالسلام، ثم يؤتى بالبعدية والتحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والترضية عن الصحابة، ثم عن إمامهم المهدي، ثم يؤتى على المقصود"[13]. أما الصيغة الثانية حسب القلقشندي فـ "تفتتح المكاتبة بلفظ (أما بعد) والأمر فيه على نحو ما تقدم في الأسلوب قبله بعد البعدية"[14].

ومن نماذج الأسلوب الأول؛ نجد رسالة عبد المؤمن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي وجهها إلى الولاة والعمال بالأندلس، حيث افتتح الرسالة بقوله: "منْ أَميرِ المؤمنينَ أَيَّدَهُ اللهُ تعالى بِنَصْرِهِ، وَأَمَدَّهُ بِمَعونَتِه، إلى جميعِ الطَّلَبَةِ الذينَ بالأَنْدَلُسِ ومنْ صَحِبَهُم منَ الْمَشْيخَةِ والأَعْيانِ والْكافَّةِ، وَفَّقهُم اللهُ تعالى واسْتَعمَلَهُم بما يَرْضاهُ، سلامٌ عَليْكُم وَرحْمَة اللهِ تعالى وبرَكاتُه، أمّا بعد، فالْحمدُ للهِ وهوَ اللّطيفُ الكَريمُ، الرّؤوفُ الرّحيمُ، الّذي بِعدْلِهِ قامتْ السّماواتُ والأَرضُ وبِهِ تَقوم، وعلى مُحَمَّدٍ نَبِيّهِ المصطفى الصّلاةُ الْمُبارَكةُ

والتَّسْليم، ولأُمّتهِ الْمُخْلصةِ، في عِليّين كتابُها المرقُوم، والرّضى عن الإمامِ الْمَعصوم، الْمَهدي الْمَعلوم، الذي بَعَثَهُ رَحمة للمؤْمنينَ ينيلهم به الرّوحُ والنّعيمِ، ويُريهُم رَحيقَها المختوم"[15]، وأيضا ما ورد في رسالةٍ حول مقتل الثائر ببلاد جزولة للخليفة المستنصر، حيث استهلت بقوله: "مِنْ أميرِ المؤمنين بنِ أميرِ المؤمنينَ أَيَّدهُ اللهُ بِنصرهِ وَأَمَدّه بمعونَته، إلى الطّلبةِ والموحدين والشُّيوخ والأعيانِ والكافّة بمُراكش – أدامَ اللهُ كرامتَهُم بتقْواه، وَأوزَعهُم شكر نعماه – سلامٌ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاته. أما بعد، فإنّا نَحمَد إليْكم اللهَ الذي لا إلَهَ إلا هو، وَنَشكُرهُ على آلائهِ وَنِعمِهِ (...) والصلاةُ على مُحمدٍ مُصطفاهُ ونَبِيُّهُ المبْتَعث بالْحُكمِ والأنوار (...) وعلى آلهِ وصَحابَتهِ المصْطفين الأخيارِ الأبرار (...) والرّضا عنِ الإمامِ المعْصومِ، المهْدي الْمعلوم"[16].

أما الأسلوب الثاني في الافتتاح؛ فقد ورد في رسالة المستنصر لأحد نوابه، حيث افتتحها بقوله: "أمّا بعد، حَمداً للهِ الآمرِ بالوَفاءِ بالعهودِ، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمد المصطفى الكريم سَيّدِ الْوجودِ، وعلى آلهِ وصَحبهِ لُيوثِ البأْسِ وغُيوثِ الْجودِ، والرّضا عن الإمام المعصومِ المهدي المعلوم الآتي بالنَّعتِ الموجودِ، في الزّمنِ المحدودِ، وعنْ خُلَفائهِ الواصلين، بأَمْرهِ إلى التّهائمِ والنّجود، والدُّعاءِ لسيّدنا الْخليفة الإمام المستَنصِرِ باللهِ أميرِ الْمُؤمِنينَ بسعْدٍ تذلُّ لهُ النَّواصي، وَيَهُدّ الأقطار القواصي"[17]. وأيضا في رسالة أبي الحسن بن عياش عن الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة بعض مدن الأندلس، حيث افتتح الرسالة بقوله: "أما بعد حمدِ اللهِ الذي عمَّ بنوالهِ، وَخصَّ أهلَ ولايَتِهِ بقبولهِ وإقبالهِ، والصلاةُ على مُحمدٍ عبدهِ ورسوله، وعلى صَحْبه الأكرمينَ وآله، والرضا عن الإمامِ المعصوم، المهدي المعلوم، القائمِ بإتمام أمرِ اللهِ وإكماله، المؤيَّد بالآياتِ العصمية، والبيّنات الحكمية، في كافَّة أقوالِه وأَعْماله"[18].

غير أننا نجد أنواعا أخرى من الاستهلال لم يذكرها القلقشندي، منها الرسائل التي تفتتح بالبسملة وبالعلامة السلطانية التي كان الخلفاء الموحدون يكتبونها بخط يدهم، ومن أمثلة الرسائل التي تفتتح بالبسملة؛ ما ورد في رسالة المهدي إلى جماعة الموحدين، حيث افتتحت بالقول: "بسم الله الرحمن الرحيم، صلى اللهُ على محمد آلهِ وسلمَ، إلى جماعَةِ أهلِ التوحيدِ وفَّقَهُم اللهُ لما يُحِبّه ويَرضاهُ، سلامٌ عليْكُم ورَحمةُ اللهِ وبركاتُه، أما بعد فإنا نَحمدُ إليكُم اللهَ الذي لا إلهَ إلا هو ونشكُرُه على آلائهِ ونِعَمِهِ، ونُصلي على مُحمَّدٍ نبيّه ورسولِه"[19]. وما ورد في رسالة عبد المؤمن إلى أهالي كزولة حيث افتتح رسالته بقوله: "بسم الله الرحمن الرحيم، صلى اللهُ على مُحمدٍ وآلهِ وسلمَ، سلامٌ عليكُم ورحْمةُ اللهِ وبركاته، أما بعد، فإنا نَحْمدُ إليكُم اللهَ الذي لا إلَه إلا هو، ونَشْكُرهُ على آلائهِ ونِعَمه، وَنُصلي على مُحمَّدٍ نَبيّه ورَسولِه، والذي نوصيكُم بهِ تقوى اللهِ والْعملِ بطاعَتِهِ والاسْتعانَةِ بهِ والتَّوكّلِ عَلَيْه"[20].

كما نجد نوعا آخر من الرسائل الديوانية تباشر بالحديث في الموضوع مباشرة، كرسالة التقريع التي وجهها ابن مبشر لإحدى فرق الجيش التي افتتحها بقوله: "إلى أُمَّةٍ نَهَجتْ أفْئِدتُهم وقلوبُهم، وَرَكَنتْ إلى الخَفْضِ ولَيانِ الْعيْشِ جُنوبُهم، وظهَر عُدولُهُمْ عَنْ سنَنِ الرّجالِ والأَشِداء ونُكوبُهُم، الذينَ ارْتسَموا منَ الجُبْنِ والْفَشَلِ بأَقْبَحِ النُّعوت"[21]. وأيضا رسالة المهدي بن تومرت إلى المرابطين التي استهلها بقوله: "إلى الْقَوْمِ الذينَ اسْتَزلّهم الشيطان، وغَضِبَ عَلَيهِم الرَّحمن، الفِئةُ الباغِيَة، والشّرذِمةُ الطّاغيَةُ اللّمتونية، أما بعد، فَقَدْ أمَرناكُم بما نَأْمُر به أَنْفُسنا من تَقوى اللهِ الْعظيمِ ولُزومِ طاعتِه"[22].

ومن أنواع الافتتاحات أيضا نجد الرسائل التي يرسلها الولاة والعمال والقواد وحكام البلاد الأخرى إلى الخليفة، وهي على قسمين، قسم يفتتح بالقول: "حَضْرةُ سيّدنا الْمُعَظم الأسنى أبي فلان بْنِ سيّدنا ومولانا أميرِ المؤمنين– أيَّدَ اللهُ أَمرَهُم، وأَعَزَّ نَصرَهُم– منَ الْمُلزَمين لأَمْرهم، الْمُديمينَ لِحَمْدِهم وَشُكْرِهم، الطَّلبة الذينَ بفُلانة سلامٌ على السَّيد الْمُعَظّم الأسنى وَرَحمةُ للهِ تعالى وَبَرَكاته"[23]، وما ورد في رسالة أهل مراكش إلى المنصور جوابا على رسالته التي يبشرهم فيها بالنصر في موقعة الأرك: "الحَضْرة الإمامِيَّة العالية، الْمُعظَّمَة الْمُكَرَّمَة الْمُقَدَّسة الطاهرة السّامية، حَضْرة سيّدنا ومولانا الخليفة الإمام المؤيد الْمنصور الناصِر لدينِ اللهِ أميرِ المؤمنينَ بن سيّدنا ومولانا الخَليفَة الإمام أميرِ المومنينَ بنِ سيّدنا ومَوْلانا الْخليفَة الإمام أمير المومنين"[24].

أما القسم الثاني من أنواع الافتتاحات في الرسائل التي ترسل إلى الخليفة هو أن تفتتح الرسالة بعبارة (إلى أمير المومنين)، ومن ذلك ما ورد في رسالة حكومة بيشة التي يشتكون فيها تجاوز المشرف المالي ببجاية لحدود العهد المبرم: "إلى أميرِ المؤمنينَ أَيَّدَ اللهُ أَمْرَهُ وَأَعَزَّ نَصْرَهُ، مُعَظّمونَ مقامَهُ (...) وقمامِستِها وَشُيوخها وأَهْلِ الحلِّ والعَقدِ فيها، سلامٌ كَريمٌ حَفيلٌ على الحَضْرةِ الْمُعَظَّمَةِ وَرَحْمَةُ اللهِ تعالى وَبَرَكاته"[25].

ب – على مستوى العرض:

الصدر: بعد أساليب الافتتاح التي رأيناها في الرسائل الموحدية ينتقل الكُتَّابُ إلى صدر الرسالة؛ وهو في الغالب على نمط واحد، حيث يقدم فيه الكاتب الرسوم المعتادة من التصلية على الرسول (ص)، والترضية على المهدي المعصوم، ويبتدئ الصدر في الغالب بعبارة (أما بعد)، ومن ذلك ما ورد في رسالة حول الانتصار في معركة بحرية قرب مدينة تنس، ومما جاء فيها: "أما بَعدَ حمدِ اللهِ الذي يَسَّرَ الفتح الجليل آية لأمرهِ شاهدة، ونِعمة بأعلى منها واعدة، والصلاةُ على محمدٍ نَبِيّهِ وَرَسولِه، وعلى صَحابَتِهِ التي عَكَفَتْ على إعلاءِ دَعْوَتِه ونَصْرِ كَلِمَته جاهدةً مُجاهِدةً، والرضا عن الإمامِ الْمَعصومِ الْمَهدي الْمَعْلوم الّذي رَدَّ بالسّيفِ والحُجَّةِ القاطعين قُلوباً نافِرَةً وأَفْئِدَةً شارِدَةً، والدّعاء لِسَيّدنا ومَوْلانا أميرِ الْمُؤْمنينَ بإمْداد جُيوشِهِ بِجُيوشٍ منَ الرُّعْبِ تسيرُ بينَ أيْديها ناهِدَة، وَتُغادر فِرقَ الْكُفرِ والضّلالِ حيْثُ كانت حَصيداً خامِدَةً، ولِلْأَميرِ الأَجَلِّ الأَفْضلِ أبي عبدِ اللهِ، بإسْعادِهِ بِبَرَكَةِ سَيّدِنا وَمَوْلانا الْخَليفَة سَعادَةً على مَرِّ الأَيامِ مُساعدة"[26]، وما ورد في رسالة الخليفة يوسف إلى الولاة بعدم تنفيذ أحكام الاعدام قبل استشارته حيث يقول: "أما بعد، فإنا نَحْمَدُ إلَيْكُم اللهَ الذي لا إلَهَ إلا هو، وَنَشْكُره على آلائِهِ ونِعَمِه، وَنُصَلي على مُحَمَّدٍ نَبِيّهِ الْمصْطفى وَرَسولِه، وَنَرْضى عنِ الإمامِ الْمَعْصوم المهدي الْمَعلوم، نَجْلِهِ وَسَليلِه، ونُوالي الدّعاءَ لِسَيّدِنا أميرِ المؤمنينَ القائمِ بأَمْرِ اللهِ والداعي إلى سَبيلِه"[27].

الموضوع الرئيسي: بعد الصدر يدخل الكاتب مباشرة في صلب الموضوع أو عرض الرسالة، ويتخذ ذلك أسلوبين: الأسلوب الأول أن يدخل الكاتب في العرض بقوله: (كتبنا إليكم)، ومن ذلك ما ورد في الرسالة المنظمة: "كَتَبنا إليكُم هذا الكتابَ بعْدما اتّصلتْ بنا أخْباركم، وقِيامُكم في نُصْرة الْحَقّ واجتهادكُم على إحْياءِ السّنة"[28].

أو يبدأ العرض بعبارة (فإنّ كتبناه)، ومن ذلك ما جاء في رسالة ابن مبشر التقريعية التي يقول فيها: "فإنّ كتبناهُ –كتبَ اللهُ لكُم بَصائرَ لا تَعْمى عنْ مَراشِدِها، وَسرائِرَ لا يَنحل مبرح مَعاقِدِها[29]، وما ورد في رسالة السيدين أبي حفص وأبي سعيد حول هزيمة ابن مردنيش في موقعة الجلاب، والتي يقولان فيها: "فكَتبناهُ –أكْرَمَكُم اللهُ بتقْواهُ، وأَوْزعْنا وإياكُم شُكْر نعماه– منْ مَضْربِ مَحلّات الموحّدين –أنْجَدَهم الله– بِظاهرِ مُرسية يَسّرها اللهُ، وَصنع الله الْجَميل، وَفَتْحه الْجَزيل"[30].

ت– على مستوى الختام:

تختتم الرسائل الموحدية في الغالب على أنماط كثيرة، لكنها في الغالب لا تخرج عن أربعة أنماط رئيسية:

النمط الأول:

في هذا النمط تختتم الرسالة بالسلام، ومن أمثلة ذلك ما اختتمت به رسالة المهدي إلى المرابطين، "والسّلامُ عَلَيْكُم سَلامَ السُّنَّةِ لا سَلامَ الرِّضى"[31]، وفي رسالة عبد المؤمن بن علي إلى أهالي كزولة التي أنهاها بقوله: "والسّلامُ علَيْكُم وَرَحْمَةُ اللهِ وبَرَكاتُه وَهُو حَسْبُنا وَنِعْمَ الوكيل، نِعْمَ المولى وَنِعمَ النّصير"[32]، وفي رسالته بالأمر بالمعروف التي أرسلها إلى الولايات: "فانْظُروا هذا –وَفَّقَكُم اللهُ تعالى– نَظرَ أولي الألباب، ولْتسعوا جُهْدَكُم في رَفْعِ ذلكَ الْعملِ الْمُسْتراب، ولْتَذْهَبوا إلى إظْهارِ أَمْرِ اللهِ سُبْحانَهُ على مُوجِبِ الكِتاب، والسّلامُ عليكُم وَرَحْمَةُ الله تعالى وَبَرَكاته"[33].

النمط الثاني:

في هذا النمط تُختمُ الرسالة بتوقيع تاريخ تدوين الرسالة، كما جاء في رسالة الشيخ أبي حفص الهنتاني إلى أهل مالقة: "كُتبَ ظُهْر السابع عشَر منْ ربيع الأول سَنةَ ثمانٍ وأَربَعينَ وَخَمْسَمائة، (فاسْتَبْشروا بِبَيعكِمْ الذي بايَعْتُم بِه)[34]، وَبِصفَتِكم الرّابح، (واللهُ لا يُضيعُ أجرَ من أَحسنَ عَملا)[35] وَكُتِبَ في التاريخِ المذكور، وباللهِ التَّوفيق"[36]. ورسالة السيدان أبي حفص وأبي سعيد حول هزيمة ابن مردنيش في موقعة الجلاب: "...وَتَولاهُم بمَعهُود إظهارِهِم في مصادِرِهِم وموارِدِهم، بِعِزّتِه وقُدرتِه وطولِه، لا رَبَّ سِواهُ، والسّلامُ عليْكُم وَرَحْمَةُ اللهِ تعالى وَبَرَكاته، كُتِبَ في العشْرِ الْوَسَطِ منْ ذي الحِجَّة عام سِتين وَخَمْسِ مائة"[37].

النمط الثالث:

تختتم الرسالة في هذا النمط بالدعاء، ومن ذلك ما ورد في رسالة المهدي إلى جماعة الموحدين، والتي اختتمها بقوله: "فإنّكُم على الْحَقّ الْمُبين عَنْهُ تُدافِعون، وَعَلَيْهِ تُقاتِلون، فَأَيْقنوا بِثوابِ اللهِ وَصَدّقوا بما وَرَدَ في الْجِهاد، واعْتَصموا باللهِ، هُوَ وَلّاكُم فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصير، جَعَلَنا اللهُ وإيّاكُمْ منْ عِبادِهِ الْمُخْلِصين، وَمِنْ حِزْبِهِ الْمُفْلِحين"[38]. وفي الرسالة العتابية التي أرسلها ابن عبد الحميد إلى ابن تودوت: "بَلَّغَني اللهُ في إنابَتِكَ الْأَمَل، وَأَصْلَحَ مِني ومِنْكَ الْقَوْل والْعَمَل والسّلامُ على منْ أَخْلَصَ في حُبِّ هذا الأَمْرِ الْعَزيزِ واستَقام، ولا حَوْلَ ولا قُوّة إلا باللهِ الْعَلي الْعَظيم"[39].

النمط الرابع:

أما النمط الرابع والأخير من أنماط اختتام الرسائل الديوانية الموحدية، فَيختتم بأمثال أو حكم، ومن ذلك ما ورد في رسالة والي سجلماسة السيد أبي الربيع إلى ملك غانة، حيث اختتم بقوله: "لَكِنا لا نَسْتَصْوِبُ فِعْلَهُ، ولا يَنْبَغي لنا أنْ نَنْهى عَنْ خُلُقٍ وَنَأْتي مِثْلَهُ، والسّلام"[40]، وفي رسالة أخرى للمهدي بن تومرت وجهها للمرابطين يختتمها قائلا: "وَكِتابُنا هذا إلَيْكُم إعْذارٌ وَإنْذارٌ، وَقَد أَعذَر منْ أَنذَرَ"[41]. وفي نفس الصدد يختتم الشيخ أبو حفص الهنتاني رسالته عن مقتل الثائر الماسي بقوله: "(وَظَهَرتْ الْعِبرَةُ لِلْمُعْتَبِرِ في جَرْيِ الدّماءِ مَجاري الْأَبْحُر)، (فَمَنْ لَمْ تُدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ بِسِنان، أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ بِشَرّ مَكان)[42].

3- الاقتباس والتضمين:

حرص كتاب الديوان الموحدين حرصا كبيرا على اقتباس آي القرآن وتضمين الحديث النبوي الشريف في رسائلهم، وفي ذلك يقول صاحب المثل السائر: "لا يجوز أن يخلو الكتاب من معنى من معاني القرآن الكريم، والأخبار النبوية الشريفة، فإنها معدن الفصاحة والبلاغة"[43]، فقد تقوم الآية المستشهد بها في بلوغ الغرض، وتوفية المقاصد، ما لا تقوم به الكتب المطولة[44]. وقد كان اقتباس الكتاب الموحدين من القرآن الكريم والحديث الشريف على وجهين: أولهما إيراد الآيات والأحاديث الشريفة بصيغتها ولفظها دون تغيير أو تبديل، وثانيهما إيرادها دون النص عليها بصيغتها، فيأخذون المعنى دون اللفظ، ومن ذلك لا يكاد يخلوا كتاب من كتبهم.

أ- الاقتباس من القرآن الكريم:

احتلت ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم حيزا كبيرا من الرسائل الديوانية الموحدية إذا ما قورنت بالأحاديث النبوية، فيكاد يندر أن تصدر رسالة ديوانية خالية من آية واحدة اقتبسها الكاتب بنصها الكامل؛ أو أشار إليها بطريقة محكمة غير مباشرة.

اقتباس الآيات القرآنية الصريحة بنصها الكامل:

من هذا الوجه ما ورد في رسالة المهدي إلى جماعة الموحدين التي تضمنت العديد من الآيات القرآنية، ومما اقتبس فيها: "فَحَمِدنا اللهَ تَعالى على ذَلكَ وشَكَرْناهُ إذْ مَنَّ عَلَيْنا بالإخْوانِ على إظْهارِ الدّينِ وإحْياءِ السُّنَّةِ، امْتِثالا لِقولِ اللهِ تعالى: (واذْكُروا إنْ كُنْتُمْ قَليلا فَكَثَّرَكُم)[45] (...) وَأَخْبَرَ أَنَّ الجِهادَ بالْأَموالِ والْأَنْفُسِ تِجارَةٌ تُنْجي منْ عذابٍ أليمٍ، فقالَ تَعالى (يا أَيُّها الّذينَ آمنوا هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجارَةٍ تُنْجيكُمْ منْ عذابٍ أليم) إلى قوله (ذلكَ الْفَوْزُ الْعَظيم)[46] (...) وَلهذا عَظَّمَ اللهُ الشَّهادَةَ وَجَعَلَ الْقَتْلَ في سَبيلِ اللهِ حياةً لئَلّا يَظُنَّ الظانُّ أنّهُ مَيّتٌ فَقالَ تَعالى في كِتابِهِ (ولا تَحْسَبَنَّ الّذينَ قُتِلوا في سَبيلِ اللهِ أَمْواتاً بلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقون) إلى قَوْلِهِ (وَلا هُمْ يَحْزَنونَ)[47]، وقال تَعالى: (ولا تَقولوا لِمَنْ يُقْتَل في سَبيلِ اللهِ أمواتاَ بلْ أَحْياءٌ عندَ رَبِّهِمْ وَلَكنْ لا تَشْعُرون)[48] [49].

وفي رسالة المنصور بعد نكبة ابن رشد التي أرسلها إلى الولايات يأمر فيها الناس بترك علوم الفلسفة وإحراق كتبها، نجد الكثير من الآيات القرآنية المقتبسة: "وَقَد كانَ في سالِفِ الدَّهْرِ قومٌ خاضوا في بُحورِ الأَوْهامِ، وأَقَرَّ لَهُم عَوامُّهُم بِشُفوفٍ عَلَيْهِم في الأفْهام (...) وَبِعَمَلِ أَهْلِ النّارِ يعْمَلون (لِيَحْملوا أَوْزارَهُم كامِلَة يومَ القِيامَةِ ومنْ أَوْزارِ الّذينَ يُظِلّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ، ألا ساءَ ما يَزِرون)[50]، وَنَشَأَ مِنْهُمْ في هَذِهِ السمحةِ الْبَيْضاءِ شَياطين إنْسٍ (يُخادِعونَ اللهَ والذينَ آمنوا وما يُخادِعونَ إلّا أَنْفُسَهُم وما يَشْعُرون)[51]، يوحي بَعْضُهُم إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُروراً، وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلوه، فَذَرْهُم وما يَفْتَرون)[52] (...) وما أُمْهلوا إلّا لِيَأْخُذَهُم (اللهُ الذي لا إلهَ إلّا هُوَ وَسِعَ كُل شيءٍ عِلْما)[53]، (...) ثمَّ طردوا منْ رَحْمَةِ اللهِ (ولَوْ رُدّو لَعادوا لِما نُهوا عَنْهُ وإنَّهُم لكاذِبون)[54] (...) فاحذَروا –وَفَّقَكُم اللهُ– هَذِهِ الشّرْذِمَةَ على الإيمانِ، حَذَرَكُم منَ السّمومِ السّارِيَةِ في الأَبْدان (...) (ولا تَرْكَنوا إلى الّذينَ ظَلَموا فَتَمَسَّكُم النّار، وما لَكُمْ منْ دونِ اللهِ من أولياء ثم لا تنصرون)[55]، (أولائك الذين حبطت أعمالهم)[56]، (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[57] [58].

اقتباس المعنى القرآني دون اللفظ:

من هذا النوع نجد ما ورد في رسالة السيد أبي موسى إلى المرتضى بشأن إخفائه للمدخرات، حيث جاء فيها: "وَأَنَّهُ مالُ الْمُسْلِمين، وَلَمْ تَزَلْ أَبَدا تَتَّصِفُ إلى الزّهّادَةِ وَتَتَّصِفُ بالوَرَعِ، وَمَنْ يَكونُ كذلكَ لا يَليقُ بِهِ (كَنْزُ الذَّهَبِ ولا الْفِضَّةِ في الأَرْضِ، وقَدْ قالَ اللهُ تَعالى في الّذينَ يَكْنِزونَ الذَّهَبَ والْفِضَّةَ ما قالَ)[59] [60]. وفي توقيع المنصور لقوم أهدوه فيلا: (نَحْنُ لا نُريدُ أنْ نَكونَ أَصْحابَ الْفيلِ)[61] [62]. وفي رسالة الخليفة يوسف لأهل مراكش حول انتصاره في معركة بفحص هلال: "وَتَوَجَّهَتْ رَحْمَةُ منَ اللهِ إلَيْه، وَيَتَفَرَّغُ إلى غَيْرِهِم فَيُمالُ عَلَيْهِم مَيْلَةً تُحَطِّمُ الرِّقاب، وَتَلِجُ عَلَيْهِم الأَنْقاب، حَتى يُنْجِزَ اللهُ فيهِمْ وَعْدَهُ الصّادقَ (وَيظْهَرُ دينهُ على الدّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرونَ)"[63] [64]. وفي رسالة ابن عطية التي يقول فيها: "وَأَلِفَتْهُ الأَهواءُ وَحَجَّت المناصحَة فيهِ الأَسْماع، ونَسيَ كلٌّ رَبَّهُ فَأَنْساهُ نَفْسهُ"[65] [66].

ب – تضمين الأحاديث النبوية:

لم تقتصر الرسائل الديوانية الموحدية على اقتباس الآيات القرآنية بنوعيها الحرفي أو دمج بعض ألفاظها في سياق الكلام، بل شملت الأحاديث النبوية كذلك. وورود الأحاديث النبوية قليل إذا ما قارناه مع الآيات القرآنية، ومن أمثلة ذلك نجد الحديث الذي استشهد به السيد عبد الرحمان والي مرسية؛ في الرسالة التي أرسلها إلى ألفونسو ملك قشتالة: "وَعَنْهُ رَوَيْنا: (مَنْ فارَقَ الْجَماعَةَ واسْتَذَلَّ الإمارَةَ لقيَ اللهَ ولا وَجْهَ لهُ عِنْدَه)"[67]. وفي رسالة المهدي إلى الموحدين التي يشجعهم فيها على الجهاد وقتال المرابطين، استشهد بالعديد من الأحاديث منها: "فَلَمّا عَلِم رسولُ اللهِ صلى الله عليهِ وسلمَ فضْلَ الشّهادَةِ أمرَ بذلكَ أَصْحابَه وَتَمَنّى الْقَتْل في سبيلِ اللهِ،

فَقالَ (وَدِدْتُ أني أُقاتِلُ في سبيل اللهِ فأُقْتَل ثمَّ أُحْيى فَأُقْتَل ثمَّ أُحْيى فَأُقْتَل)[68]، فَكَرَّرَ ذلكَ تَعْظيماً لأَمْرِ الشّهادةِ، وفي فَضْل الشَّهادةِ كثيرٌ منَ الأَخْبار (...) فَجِهادُهُم عَلَيْهِ فَرْضٌ لِقَوْل رسولِ اللهِ صلى اللهُ علَيْه وسَلَّم (مَنْ قُتلَ دونَ دينهِ فهُو شَهيد)[69] [70].

وفي رسالة وجهها عبد المؤمن إلى الولايات يحث فيها ولاته وعماله على العدل بين الناس، ويمنع تنفيذ أحكام الإعدام إلا بعد مشورته، ضمن العديد من الأحاديث النبوية، حيث جاء فيها: "وَبِرَحْمَتِه سُبْحانَه بَسَطَ لعِبادِهِ النّعماء، وبرأْفتِهِ كشَفَ عَنْهُم الغمّاء، قال النبي صلّى اللهُ علَيهِ وسَلَّم (إنما يَرْحَمُ اللهُ منْ عبادِهِ الرّحماء)"[71] (...) وَيَسْعونَ في اسْتئصالِ نُفوسهِم بكُلّ قاطعَةٍ مُوجِعةٍ، ويَعيثونَ فيهِم بكُلّ غاصبةٍ للقُلوبِ مُنْتزعة، والنّبي صلى اللهُ تعالى وَمَلائكَتُه الكرامُ عليهِ وسلمَ يقولُ: (مَنْ قَتَلَ عُصفوراً بغَيْر حقّ عبثاً جاءَ يومَ الْقيامَةِ ولَهُ صُراخٌ عندَ العَرْش يقول: يارَبّ، سلْ هذا فيمَ قتَلَني

عبثاً منْ غيرِ مَنْفَعَةٍ)[72] (...) أَلَمْ يَقُل رسولُ اللهِ تعالى ومَلائكَتُه الكِرامُ عليهِ وسَلَّم (المسلمونَ تَتَكافأُ دِماؤُهمْ وَيَسْعى لِذمَّتِهم أَدْناهُم، وهمْ يدٌ على مَنْ سواهُم)[73] (...) اللّهم إنّا نُشْهِدُك أنّ سبيلَنا سبيلُك، وإنّا نَسْتَعيذكَ مِمّا اسْتَعاذَك منهُ مُحَمَّدٌ رَسولُك، وَرُوي عَنْهُ صلى اللهُ عليهِ وَسَلّم أنَّهُ قال: (أَعوذُ باللهِ من المغرَم والمأثَم)[74] (...) واللهَ واللهَ في البحثِ على الخمرِ وتَقديمِ النّظر في أَمْرها فَهُو منْ أَهَمّ الأمورِ، فإنّها مِفتاحُ الشّرورِ ورأْسُ الكَبائرِ والْفُجور (...) قال النّبي صلى اللهُ تعالى وملائكَتُهُ الكرامُ عليهِ وسلّم (الخَمْرُ جماعُ الإثْم)[75]، وَلقضايا الشّرعِ نظام، قال رسول اللهِ صلى اللهُ تعالى وملائكتهُ الكرامُ عليهِ (ما أَسْكَرَ كَثيرهُ فالجُرعَةُ منهُ حرام)[76] (...) واتْجوا لَهُم منَ المبَرّاتِ ما يَبْدو بهِ مضهركُم الجَميلُ ويتبيّن، وسروا بصالحِ عمَلِكُم وبَشّروا، وَيَسّروا- كما قال عليْه الصّلاةُ والسّلام (وَلا تُعَسّروا وَسكّنوا ولا تُنَفّروا)[77] [78].

ونلمس من تتبعنا لتضمين الأحاديث النبوية في الرسائل الموحدية أنها في الغالب لم ترد بلفظها الصحيح كما وردت في كتب الصحاح، بل غلب عليها تضمين المعنى.

4 – تضمين الأشعار:

يكثر الاستشهاد بالأبيات الشعرية في رسائلنا، سواء كان ذلك لشعراء مشارقة أو مغاربة، أو حتى من إنشاء الكتاب أنفسهم؛ بحسب ما يناسب موضوع الرسالة، وفي هذا الصدد يقول القلقشندي: "الملوك والخلفاء إذا كتبوا إلى من ضاهاهم في أبهة الملك وقاربهم في علو المرتبة فإنه لا يمنع التمثل بأبيات الشعر فيها تطريز للنثر والنظم، وجمعا بين جنسي الكلام اللذين هما خلاصة مقاصده"[79]، على أنه يَشترط في ذلك مراعاة المقام حيث يقول: "وأما الشعر فيورد حيث يحسن إيراده، ويمنعه حين يحسن منعه، وليس كل مكاتبة يحسن فيها إيراده، بل يختلف الحال في ذلك بحسب المكتوب عنه والمكتوب إليه"[80]، ومن أمثلة وروده في الرسائل الموحدية ما ورد في رسالة الشيخ أبي حفص الهنتاني يخبر فيها بمقتل الثائر الماسي: "جَميعُ أشْتات الطّلب والأرب، وتَقَلّبَ في النّعم أَكْرَمَ مُنْقلب، ومَلأَ دلاءَ الآمالِ إلى عَقْد الكَرب.

فَتْـحٌ تَـفَتَّحَ أَبْـوابُ السّـماءِ لهُ

وَتَبْرُزُ الأَرْضُ في أثْوابِها القُشُبِ[81] [82]

وفي رسالة العتاب التي أرسلها ابن عبد الحميد إلى ابن تودوت حول تمرده، نجده يقول: "كيف أشمتَّ بنفسِكَ وإخْوانكَ الْعِدا، وعَرَّضْتَ للمِحْنةِ أهْلا وَوَلَدا، وَرَكِبْتَ هَوى نَفْسكَ فَكُنْتَ أضْعفَ ناصراً وَأَقَلَّ عَدداً.

فـدَاوِ داءَكَ والأسبـابُ مـمكنةٌ

وإذ طـبيبُكَ قد أَلْقى عَلَيْك يَدا "[83]

وفي رسالة السيد عبد الرحمن والي مرسية التي وجهها إلى ألفونسو ملك قشتالة؛ نجده يستشهد ببيتين للأديب أبي جعفر الأعمى التطيلي الذي يقول فيهما:

فانظُر بِعقْلكَ إنَّ الْعَيْنَ كاذِبَةٌ

واسْمعْ بِحِسّكَ إنَّ السَّمعَ خوّانُ

ولا تَقُل كُلُّ ذي عَيْنٍ لهُ نَظَرٌ

إنَّ الرُّعاةَ تَرى ما لا تَرى الضّان[84] [85]

ومن ذلك أيضا ما ورد في رسالة المأمون العتابية التي وجهها إلى أهل أندوجر سنة 622 هـ، بعد أن تهاونوا في الدفاع عن حصنهم؛ وفضلوا تسليمه بدل الذود عنه والقتال في سبيله، ومما جاء فيها:

"فَلا يَغُرَّنّكُم الإمْهالُ أيّها الجُهّال ولا يَعودَنَّكُم الاجْتراءُ إلّا لِنَبذكُم بالْعراءِ، وَأدواء الأهْواءِ بالسّيفِ تَنْحَسِمُ.

إذا رَأيْتم نُيُوبَ اللّيْثِ بارِزَةً

فَلا تَظُنّون[86] أنّ اللّيْثَ يَبْتَسِمُ[87] [88]

5 – الجمل الدعائية والمعترضة:

تكثر الجمل الدعائية والمعترضة في الرسائل الموحدية، فلا نكاد نجد رسالة ديوانية واحدة تخلو من هذه الجمل، وتختص هذه الجمل في غالبية الأحيان بالأفراد والجماعات والأماكن، والجمل الدعائية هي تلك العبارات المتضمنة للدعاء بدوام العز، والسعادة، وإطالة البقاء، ودوام السلطان، وبطول عمره وعز دولته ودوام عزته[89]، أما الجمل المعترضة فهي التي تأتي بين معترضتين في سياق الكلام، وقد عرفها أبو هلال العسكري بقوله: "هو اعتراض كلام في كلام لم يتم، ثم يرجع إليه فيتمه"[90] ، وهي أيضا الجملة "المعترضة بين شيئين لإفادة الكلام تقوية وتسديدا أو تحسينا"[91].

أ – الجمل الدعائية:

من الجمل الدعائية الواردة في الرسائل الموحدية؛ نجد ما ورد في رسالة الخليفة المرتضى إلى البابا اينوصان الرابع، يطلب منه إبقاء مرتزقة الروم للقتال إلى جانبه، حيث يقول فيها: "منْ عبدِ اللهِ عمرَ أميرِ المؤمنينَ بنِ سَيّدِنا الأميرِ إبراهيمَ بنِ أميرِ المؤمنينَ بن أميرِ المؤمنينَ أَيَّدَهُم اللهُ تعالى بِنَصْرِهِ وأَمَدَّهُم بمَعونَتِهِ إلى مُطاعِ ملوكِ النّصرانيَّةِ ومُعَظّمِ عظَماءِ الأمّةِ الرّوميَّة، وَقيمِ المِلّةِ المسيحيَّةِ، وَوارِثِ رِئاسَتِها الدّينِيَّةِ البَابه إينُهْ سانِسْ أشْ، أنارَ اللهُ تَعالى بَصيرَتَه بتَوْفيقِه وإرْشادِه، وَجَعلَ التَّقوى التي أَمَرَ عَزَّ وَجَلَّ بها عدّته لِحياه وَمَعادِه، وأنالهُ منْ سابقِ الْهِدايةِ ما يَقْضي لِمَدى الْغايَةِ بِأَتَمّ انْفِساحِهِ وامْتِدادِه، تَحِيّة كَريمَة نراجِعُ بها ما تَقَدَّمَ منْ تَحِياتِكُم الوارِدَة عَلَيْنا، وَيُتَرجمُ لكُم أرجُها عمّا تَعْتَمدُكمْ بهِ المبارُّ لَدَيْنا"[92]. ومن ذلك أيضا ما ورد في رسالة أهل مكناسة التي يجددون فيها البيعة للخليفة السعيد، وقد ورد فيها: "اللّهُمَّ ارض عنْ خليفَتِكَ في عِبادِك، الْمرتَسم في ديوانِ أَوْليائكَ وَعبادِك، الإمامُ المؤيّد، والْحُسامُ الْمُهَنَّد، الأَتْقى الأَظْهرُ الأَعلى الْمُعْتضِدُ باللهِ أميرِ المؤمنينَ أبو الحسنِ ابنِ سيّدنا الْخليفة الإمام المأمونُ أميرُ المؤمنينَ ابنِ الْخلفاءِ الراشِدين، رضى يَبلغه أَمَلهُ في الدّنيا والدّين، وَيَحْكُم لدَولَتِه السّعيدةِ ومُدّته الْحَميدَة بالتّمهيدِ والتّمكينِ، وَيَجعل كلِمَته الباقيَةِ إلى يومِ الدّين، اللّهُمَّ كما انْتَقَيْته منْ أَكرمِ جُرثومةٍ، وَسَدَّدْتَه لإقامَةِ حدودِ اللهِ المرسومةِ، فَضاعف – اللّهُم – في قُلوبِ رَعاياهُ حُبَّه، وَأَيّد بالملائكَةِ والرّوحِ عِصابَتَه وحِزبَه"[93].

ب – الجمل الاعتراضية:

أما الجمل الاعتراضية فقد وردت بكثرة في الرسائل الديوانية الموحدية، فلا تكاد تخلو منها رسالة من رسائلهم، ومن ذلك ما ورد في رسالة عبد المؤمن بن علي التي أرسلها من تينملل تحمل الأوامر إلى الولاة والعمال في مواضيع مختلفة: "وَكِتابُنا هذا –كَتَبَ اللهُ تعالى لَكُمْ كلَّ رأْفةٍ وَرَحْمة، وَسَوَّغَكُم منَ اليُمنِ والأَمْنِ أَنْعمَ نِعْمة، وَجَعَلَنا وإيّاكُم فيمَن قَدمَ لدارِ قرارِه وَنِعمهِ– منَ الْحَضْرةِ الْعَلِيَّةِ بِتِنملل –حرسها اللهُ تعالى– في سادس عَشر من شهرِ ربيعِ الأول سنةَ ثلاثةٍ وأَربَعينَ وخَمْسِمئة، وقدْ وصلَنا –والْحمدُ للهِ– وجناحُ الرّحمَة مَخْفوض، وطرفُ الْمكارِهِ مَغضوضٌ، وفيْضُ الْعدْلِ والْبَذْل مُنْتشرٌ مستفيضٌ، وشَأْنُ الظّلمِ –بإذْنِ اللهِ تعالى– مكفوفٌ مقبوضٌ، والْحَقُّ أبلجٌ لا كِنايةٌ ولا تَعْريضٌ"[94]. ومنهُ ما ورد في رسالة الخليفة يوسف إلى ولاة الأندلس حيث يقول: "ولما تَوَلّى اللهُ هذهِ الجهات منذ التّمهيد، وَبسَط لها نِعمةَ التّسكينِ والتّوطيد، انْعطفَ النَّظرُ إلى مَحَلّ مثاره، وسال سَيْلُ الاعْتناءِ إلى قَرارِه، وتَوَجَّه حفلُ الاشْتغال إلى الْجزيرة –مَهَّدها اللهُ– وَتَوَفَّرتْ دواعي الاسْتعدادِ لنُصرتِها وَجهادِ عدُوِّها، ورَأيْنا في أَثْناءِ ما نُحاولُه من مَروم هذهِ الغزْوة الميمَنةِ المباشر أَنْ نُقَدِّمَ بيْنَ أيْدينا عَسْكراً مُباركاً منَ الموحّدين –أَعانَهُم اللهُ– صُحْبَة الشّيخِ الأَجَلّ أبي حَفصٍ – أَعَزَّهُ اللهُ – يُكون تقْدمةً لجوازِ جُمهورِ الْمُوَحّدين، وموذِناً بِما عَزَمْنا عليْهِ واللهُ المستعان– منَ التَّحَرُّك بِجُمْلة أهلِ التّوحيد، والْقَصْد لهذا الْغَزْو الْمَيْمونِ الّذي جَعلْناهُ نُصبَ الْعَينِ وتُجاهَ الْخاطِر، فَتَتعاونونَ معَ إخْوانِكُم الواصِلين – على بَرَكةِ اللهِ – إلَيْكُم على جِهادِ أعْدائِكم، إلى أنْ يُوافيكُم – إنْ شاءَ اللهُ – هذا الْعَزْمُ ويُلِمَّ بكُم هذا الْقَصْد"[95].

خلاصة:

في ختام هذا المقال؛ ومن خلال اطلاعنا على فن الرسائل الديوانية في عصر الموحدين، فقد تجلت أمام ناظرينا تلك المكانة المرموقة والمستوى الرفيع الذي وصل إليه هذا الفن في هذا العصر. فكتاب الرسائل الموحدون؛ قد أجادوا أيما إجادة في صياغة هذا الفن وإخراجه في أبهى حلة، وذلك من خلال أسلوب راق وبديع، ومهارة فنية قلما تجدها تجتمع في عدد كبير من الكتاب في عصر واحد. فالعصر الموحدي كان بالفعل عصر الإزدهار الأدبي والفكري بامتياز، لأنه متى ما توفرت نخبة حاكمة تهتم بميادين العلم والمعرفة، وتُشجع العلماء والأدباء وترفع من قدرهم، فإنه بالضرورة ستكون هناك ثمار ستقطف ولو بعد حين، وهو ما توفر في العصر الموحدي، نخبة اهتمت بالعلم وشجعت عليه، وأقامت له المؤسسات ووفرت له الإمكانيات، لذا نبغ في هذا العصر كتاب وأدباء أثروا الساحة الأدبية بأعمال قيمة؛ كان لها أثر كبير في التعريف بهذا العصر.

والملاحظ على هذه الرسائل التي تعرضنا لها؛ هو تفردها بسمات خاصة توحي بانتمائها إلى العصر الموحدي، وإن لم تكن تخلو من بعض اللمسات المشرقية، وهذا شيء طبيعي؛ لأنه لا شيء ينشأ من فراغ، بل هي سيرورة أدبية تربط السابق باللاحق. كما نلمس هيمنة الثقافة الدينية على هذه الرسائل؛ ولا سيما رسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ التي دأب الخلفاء الموحدون على إرسالها إلى الولايات بين الحين والآخر، والتي يغلب عليها الاستشهاد بآي القرآن والأحاديث النبوية، تعزيزا للحجة وتقوية للتأثير في نفوس المتلقين.

الهوامش:

[1] – أبو عبد الله محمد ابن هانئ اللخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، دراسة وتحقيق محمد بن معمر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2014، ص80.

[2] – نفس المرجع، ص 100.

[3] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص 30.

[4] – رسائل بروفنصال، ص 6 – 10.
[5] – نفسه، ص 146.
[6] – رسائل عزاوي، ج1، ص 75 – 76.
[7] – نفسه، ص 178 – 181.
[8] – البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 442- 443.
[9] – نفسه، ص 57.
[10] – نفسه، ص 90.
[11] – نفسه، ص 108.
[12] – نفسه، ص 374.
[13] – صبح الأعشى، ج6، ص 443.
[14] – نفسه، ص 446.
[15] – نظم الجمان، ص 188 – 203.
[16] – رسائل عزاوي، ج1، ص 130.
[17] – صبح الأعشى، ج6، ص 446.
[18] – رسائل بروفنصال، ص 93 – 94.
[19] – رسائل عزاوي، ج1، ص 53.
[20] – نفسه، ص 53.
[21] – نفسه، ص 87.
[22] – الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص 111.
[23] – رسائل عزاوي، ج1، ص 83.
[24] – نفسه، ص 200.
[25] – نفسه، ص 163.
[26] – نفسه، ص 84.
[27] – المن بالإمامة، ص 225 – 229.
[28] – رسائل عزاوي، ج1، ص 53.
[29] – نفسه، ص 88.
[30] – المن بالإمامة، ص 276 – 282.
[31] – الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص 111.
[32] – رسائل عزاوي، ج1، ص 53.
[33] – نظم الجمان، ص 188 – 203.
[34] – الآية 112 من سورة التوبة.
[35] – اقتباس من الآية 30 من سورة الكهف، والتي يقول فيها الله عز وجل: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا).
[36] – رسائل عزاوي، ج1، ص 74.
[37] – المن بالإمامة، ص 207.
[38] – نفسه، ص 49.
[39] – نفسه، ص 78.
[40] – نفح الطيب، ج3، ص 105.
[41] – الحلل الموشية، ص 111.
[42] – نفح الطيب، ج5، ص 187 – 188. الإحاطة في أخبار غرناطة، ص 169 – 170.
[43] – ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تقديم وتحقيق أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، منشورات دار الرفاعي، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط2، 1983م، ج1، ص 124.
[44] – ينظر، شهاب الدين محمود الحلبي، حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، العراق، 1980م، ص 76.
[45] – من الآية 87 من سورة الأعراف.
[46] – من الآية 12 من سورة الصف.
[47] – الآيتان 169 – 170 من سورة آل عمران.

48 – الآية 153 من سورة البقرة.

49 – رسائل عزاوي، ج1، ص 44.

50 – الآية 25 من سورة النحل.

51 – الآية 9 من سورة البقرة.

52 – من الآية 112 من سورة الأنعام.

53 – من الآية 28 من سورة الأنعام.

54 – من الآية 28 من سورة الأنعام.

55 – الآية 113 من سورة هود.

56 – من الآية 22 من سورة آل عمران.

57 – الآية 16 من سورة هود.

58 – أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، الذيل والتكملة، كتابي الموصول والصلة، تحقيق، إحسان عباس، محمد بن شريفة، بشار عوار، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2012م، السفر 6، ص 26 – 28.

59 – هذا المعنى من الآية 34 من سورة التوبة، والتي يقول فيها الله عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ).

60 – البيان المغرب، ص 449 – 450.

61 – هذا المعنى من الآية 1و2 من سورة الفيل، والتي يقول فيها الله عز وجل: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ).

62 – نفح الطيب ج3، ص 103.

63 – هذا المعنى من الآية 33 من سورة التوبة، والذي يقول فيه الله عز وجل: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ).

64 – رسائل عزاوي، ج1، ص 134.

65 – هذا المعنى من الآية 19 من سورة الحشر، والتي يقول فيها الله عز وجل: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ).

66 – رسائل بوفنصال، ص 53.

67 – ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، القاهرة، دت، ج5، ص 387، رقم 23331.

68 – أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، مركز البحوث وتقنية المعلومات، دار التأصيل، القاهرة، مصر، ط1، 2016م، كتاب التمني، باب ما جاء في التمني ومن تمنى الشهادة، رقم الحديث 6713.

69 – ينظر، الترميذي، السنن، تحقيق، أحمد شاكر، محمد فؤاد عبد الباقي، دار مصطفى الباجي الحلبي وأولاده، ط1، 1968م. كتاب 14 الديات، باب 22، ج4، ص 28، رقم 1418.

70 – رسائل عزاوي، ج1، ص 44 – 49.

71 – صحيح البخاري، رقم الحديث: 7377.

72 – عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير في شرح الجامع الصغير، تحقيق أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001م، ج6، ص192 – 193.

73 – أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني، السنن، تحقيق عادل بن محمد أبو تراب وعماد الدين بن عباس أبو عمرو، دار التأصيل، مصر، ط1، 2015م، ج2، ص 249.

74 – أحمد بن علي بن شعيب النسائي، سنن النسائي الصغرى، مركز البحوث وتقنية المعلومات، دار التأصيل، القاهرة، مصر، ط1، 2012م، ج3، ص 57.

75 – الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، لبنان، دط، ج2، ص327. (وارد بلفظ مغاير).

76 – سنن ابن ماجة ج2، ص332.

77 – فيض القدير للمناوي، ج6، ص361.

78 – نظم الجمان، ص188 – 203.

79 – صبح الأعشى، ج6، ص307.

80 – نفسه، ج17، ص 243.

81 – البيت لأبي تمام من قصيدته المشهورة التي مطلعها: السَيفُ أَصدَقُ إنباءً مِنَ الكُتُب.... في حَدِّهِ الحَدُّ بَينَ الجِدِّ وَاللَعِبِ.

82 – النفح الطيب، ج5، ص87.

83 – رسائل عزاوي، ج1، ص 78.

84 – صاحب هذين البيتين هو الأديب أبو جعفر الأعمى التطيلي، وهما من قصيدة يمدح بها أمير المسلمين عليا بن يوسف بن تاشفين يقول في مطلعها :

كم مقلة ذهبت في الغي مذهبها

بنظرة هي شان أو لها شان

85 – رسائل عزاوي، ج1، ص 178.

86 – كذلك ذكرت في الأصل.

87 – هذا البيت للمتنبي من قصيدته التي مطلعها: وَاحَرّ قَلْباهُ ممّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ.....وَمَنْ بِجِسْمي وَحالي عِندَهُ سَقَمُ

88 – البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 286.

89 – ينظر، القلقشندي، صبح الأعشى، ج 6، ص285. وإحكام صنعة الكلام، ص 75.

90 – أبوهلال العسكري: الصناعتين، ص312.

91 – مصطفى الدسوقي، حاشية الدسوقي عن مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ضبط وتصحيح عبد السلام محمد أمين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2007م، ج5، ص 56.

92 – رسائل عزاوي، ج1، ص 402.

93 – البيان المغرب، ص 378 – 379.

94 – نظم الجمان، ص 88 – 89.

95 – المن بالإمامة، ص 294.